



د. فتحي عبدالعزيز الحداد

الصلوات العُمانيّة وتأثيراتها في الصناعات الحرفية القديمة



باعتراز كبير فقد حملت السفن له الذهب والحديد من مصر، والفضة من عمان، وتبدأ العلاقات بعد ذلك بين (ماجان)، وبلاد الرافدين تأخذ طابعا تجاريا متميزا، ففي عصر أسرة (أور) الثالثة (حيث احتلت (أور) مركز الصدارة في تجارة (ماجان) منذ عهد ملكها (أورنامو5209-2112) Ur-Nammu ق.م) أحد قادة سومر البارزين إداريا، وعسكريا، فهو واضع القانون الذي نظم سلوك الفرد تجاه المجتمع وتجاه الدولة.

وقد جاء في مقدمة شريعة (أورنامو) التي تعتبر أقدم شريعة معروفة للبشرية: أنه أعاد قوارب (ماجان)، وسمح لسفن (ماجان) بالرسو في ميناء (أور) بعد أن انتصر على ملك (الجش) السومري، ووفر الحرية للتجارة البحرية في بلاد (أكاد)، ونظم دولته، ووفر لها العدالة، ولقب نفسه بـ (ملك سومر وأكاد). وهذا دليل واضح على أن الحركة التجارية بين مدينة (أور)، و(ماجان) ظلت قائمة إلى فترات لاحقة، وتزايد الاهتمام بالتجارة في عهد الملك السومري ايبين(أورنامو) (شلجي Shulgi) الذي تولى الحكم في حوالي (٢٠٥٠ ق.م)، ولقب نفسه أيضا بـ (ملك سومر وأكاد).

كان حكم (شلجي) طويلا، ومجدا، يورد هذا الملك في سجلاته ذكرا لبنائتي السفن في ماجان، كما عُثر على العديد من النصوص الوثائقية الاقتصادية الهامة التي تنتمي إلى عصر الملك (أبي سين) (٢٠٢٩-٢٠٠٦ ق.م) تؤكد التبادل التجاري لـ (ماجان) مع العراق القديم بشكل خاص، وكل منطقة الشرق الأدنى في الألف الثالث قبل الميلاد.

ومن نصوص هذا الملك التي تذكر تجارة ماجان نص يقول: "أحضرت مواد من (مخزن) معبد (نانا) من أجل تجارة النحاس من ماجان"، وتتضمن نصوص أخرى ما معناه أن منتجات (أور)، والمدن الأخرى كانت تصدر عبر الخليج، للحصول على نحاس (ماجان)، وكانت عملية التصدير تتم نيابة عن معبد (نانا)، كما تشير هذه النصوص إلى أن السفن كانت تجلب النحاس والأحجار الكريمة من (ماجان) إلى (أور)، كما تتضمن أيضا المواد المتبادلة، فمن (أور) كانت تخرج الأثواب، والصوف، ومن (ماجان) كان يرد بصل (ماجان)، ويوص (ماجان).

ولم يتوقف الإنسان العماني في أي من فترات تاريخه عن ابتكار الأدوات التقليدية التي تفي بحاجته المعيشية والعملية، وتوارث الأجيال العديد من الحرف والصناعات التي كانت ولا تزال أدوات أساسية لا غنى عنها إلي يومنا هذا. فكان من بين الصناعات التقليدية المنتشرة منذ القدم: الأواني المصنوعة من مواد مختلفة كالأواني الحجرية والفخارية والمعدنية، والمباخر المصنوعة من الأحجار والمعادن والفخار، والكثير من أنواع الأسلحة المدنية كالسهام والحرب، والعديد من أشكال الحلبي الذهبية والفضية، وغيرها من المواد التي توافرت آنذاك.

والصناعات الحرفية هي باكورة الصناعات الإنسانية على وجه المعمورة وقد ضمت المناطق الأثرية العمانية، مواقع عمل بها حرفيون متخصصون: في صناعة السفن والحرف الخشبي والمعادن والأخشاب، وغيرها من الصناعات الحرفية.

وتزخر المتاحف العمانية بمختلف المنتجات من إبداع أوئل الحرفيين على أرض عُمان منذ أقدم العصور.

* الخبير بالهيئة العامة للصناعات الحرفية



■ جانب من رحلات جلب اللبان من ظفار مصورة على جدران معبد الملكة حتشبسوت بالدير البحري بالأقصر

وهذان الموقعان كانا يرتبطان بالداخل بطريق القوافل. وتدل العديد من اللقى الأثرية على التبادل التجاري والاتصالات بين عُمان والمناطق المجاورة لها. وقد ذكر مؤلف كتاب الطواف أن موشكا كانت مرفأ لسفن الملك ويدل على الاتصال بالهند اكتشاف العديد من فخاريات شبه القارة الهندية، في عمان علاوة على أربع عملات هندية.

ومن الآثار العمانية التي تحمل تأثيرات هندية مجموعة من الأختام، وقطع معدنية وقطع من العاج، وأواني فخارية وتشابه مع مثيلاتها في الحضارة الهندية تبين مقارنته زخارف فخار رأس الجينز مع مثيلاتها الهندية لتوضح مظاهر التأثير والتبادل بين الحضارتين العمانية والهندية. وكان العاج والأختام النحاسية أيضا من الآثار المكتشفة في رأس الجينز وجميعها تشهد على قيام عُمان بصلات مع الهند وأيضا قيامها بدور الوساطة بين الهند وبلاد النهرين.

ويؤكد ما عُثر عليه من آثار في موقع (عمانا) وجود تبادل تجاري بين هذا الموقع وبين حضرموت عن طريق مينائها الشهير (قنا) ومن هذه الآثار عملتان برونزيتان من حضرموت وقد كتب عليهما اسم القصر الملكي (شقر) بشبوة كما عُثر على خاتم تدل زخرفته على أنه من حضرموت، علاوة على عدد من الأواني الفخارية المستوردة من جنوب شبه الجزيرة العربية، كما عُثر في قبر آخر بالدور على كمية من البخور، الذي تعد منطقة ظفار هي مصدره الأساسي وكانت مدينة قنا (بئر علي الحالية) هي الميناء البحري الشهير، وذكرها مؤلف كتاب الطواف حول البحر الإريترى فقال: "قنا ميناء حضرموت وله تجارة واسعة مع عُمان على الخليج ومع الهند، مع سواحل الصومال في إفريقيا".

وتعتبر النصوص المسمارية المتعلقة بالجانب الاقتصادي من أبرز الكتابات الاقتصادية القديمة لما يمثله هذا الجانب من أهمية حيوية في حياة شعوب المنطقة، فقد تحدث (سرجون الأكادي) (حوالي ٢٣٣٤ - ٢٢٧٩ ق.م) المعروف بـ(شروكين) في وثيقة تتضمن نصوصا تاريخية مسجلة على لوحة كبيرة تتألف من أربعة عشر عمودا، ليذكر أنه يفخر بأنه نجح في جلب مراكب (ماجان)، و(دلمون) و(ملوخا) إلى موانئ (أكاد)، وهناك بعض النصوص السومرية تشير إلى أن تجارا، وسفنا من (دلمون)، و(ماجان)، قدسوا (أور)، والمدن الأخرى في جنوب بلاد الرافدين بقصد الاتجار منذ الألف الثالث ق.م، أما (جوديا) Gudea أحد ملوك مدينة (جش) Lagash السومرية - والذي حكم في نهاية الألف الثاني ق.م. فقد تحدثت نصوصه عن الصلات التجارية الواسعة التي أقامها مع الدول المجاورة، وقد رصد (جوديا) البضائع التي تدفقت إلى مدينته

من ماجان مباشرة. وقد كان هذا الاتصال مستمرا سواء كان اتصالا مباشرا أو كان عبر دلمون كوسيط، وقد ذكرت النصوص العراقية أن تاجرا يدعى (إيا ناصر) خلال عهد سلالة لارسا ساهم في نقل البضائع وتصديرها من الأقمشة والزيوت وغيرها وتسلم أموالا من الفضة من التجار بغرض استيراد سلعة النحاس من دلمون.

وقد سجل مؤلف كتاب الطواف حول البحر الإريترى أن (عمانا) كانت تصدر إلى المناطق المجاورة كميات كبيرة من اللؤلؤ وما يوحى بوجود ممارسة هذه المهنة كميات الأصداف الكبيرة التي عُثر عليها في موقع الدور (عمانا).

وقد أشار صاحب كتاب الطواف أيضا إلى بعض النشاطات التجارية بين عمان وجيرانها مثل: الهند وفارس وميسان وجنوب شبه الجزيرة العربية. وذكر كذلك أن السفن العمانية تأتي من الميناء الهندي، باريوجازا، محملة بالزئبق والنحاس والصندل وخشب التيك. كما أن عمان كانت تصدر إلى كل من باريوجازا في الهند، وكاني (قنا) في جنوب شبه الجزيرة العربية نوعا من القوارب محلية الصنع تدعى ماداراتا، وكميات كبيرة من اللؤلؤ، والملابس. وتلك هي الصناعات الحرفية القديمة التي اشتهرت بها عُمان منذ القدم فقد تعددت قوارب عُمان وتنوعت بأشكال ومواد مختلفة، واشتهرت بها صناعة وتصديرا وإبحارا وشكلت مراكب عُمان جزءا لا يتجزأ من تاريخها القديم. وانتعشت مع هذا التاريخ البحري صناعة النسيج التي استمرت شهرتها بعد عصور عمان القديمة وزادت شهرتها في العصر الإسلامي.

وقد انتشرت الطرق الداخلية التي ربطت بين الموانئ الساحلية والمناطق والواحات الداخلية. ومن الملاحظ أن مواقع الآثار السابقة الذكر تقع على طرق القوافل القديمة، مما يوحي بأن هذه الطرق كانت تستخدم منذ أقدم الأزمنة، ومن هذه الطرق: الطريق الساحلي القادم من رأس الخيمة أو جلفار بالقرب من موقعي شمل وغيلية، إلى البريمي وهيلى عبر مليحة وسهل الدمام، ومن البريمي عبر سفوح الجبال إلى عبري ومنها إلى ظفار وحضرموت و من الملاحظ أن مليحة تمر بها عدد من الطرق الرئيسية مما يساعد على سهولة اتصالها. أما الطرق الخارجية البرية التي تربط عُمان بسوريا وبلاد الرافدين عبر شبه الجزيرة العربية، كما أشار ولكنسون إلى طريق بري من حضرموت إلى عُمان بالقرب من الساحل، وهو الطريق ذاته تقريبا الذي ذكره ابن خرداذبة. والطريق البحري بين ميناء عُمان وأبولوجوس وباريوجازا. وكان لعمان موانئ تربطها بحريا بالخارج وعن طريقها يتم تصدير واستيراد السلع والبضائع، وترتكب كل من الدور على الخليج العربي والبيدية على خليج عُمان

الكبير، وهي صناعة السفن المتميزة في الشرق الأدنى القديم، وفيها مناطق إنتاج اللبان، وفيها موانئ ظفار الرئيسية التي كانت قبلة التجارة العربية في جنوب شرق شبه الجزيرة العربية.

وتشير النقوش التي عُثر عليها في الموقع - والتي نُقشت بالحجر الغائر على اللوحات الحجرية بالأبجدية العربية الجنوبية - إلى تأسيس مدينة (سمهرم) التي بنيت لتأكيد السيطرة على تجارة اللبان، وتذكر النقوش اسم مدينة (سمهرم)، التي كانت تصدر على تجارة اللبان، وتذكر النقوش اسم المراكز التجارية الرئيسية في طريق البخور التجاري. وقد تكرر ذكر (سمهرم) في نصوص جنوب الجزيرة العربية نظرا لأهميتها وتوجد بها قلعة سمهرم الواقعة على قمة أحد تلالها شامخة مطللة على ميناء سمهرم.

وبينت الحفائر أن هذا الموقع يحيط به سور ذو بوابة واحدة يشمل مبان عديدة بعضها من طابقين. وذلك إلى جانب معبد خصص لإله القمر. وكان هذا المعبد يضم نظاما متطورا للتطهير ومذبحين. وتمتد المنطقة بموقع رائع لم يتغير منذ ألفي عام.

وقد اشتهرت سمهرم، بمينائها الهام الذي قام بدور كبير في تصدير لبان ظفار منذ القرن الرابع قبل الميلاد إلى بلدان العالم القديم كـمصر، وبلاد النهرين، وفارس، وبلاد الشام، وبلاد اليونان والرومان. وقد تحدثت نصوص ورسوم معبد الدير البحري بمدينة الأقصر عن رحلة الملكة حتشبسوت إلى هذه المنطقة وصورت أميرها الذي يرتدي الخنجر، ومن خلفه صور الفئان زوجته وملامح البيئة العمانية التي كان من بينها أشجار اللبان، ونخيل النارجيل. وقد عُثر في خور روري أيضا على تمثال برونزي لامرأة يعود للقرن الثاني قبل الميلاد، وتظهر صاحبة التمثال وهي تتمايل بجسدها في ثفني الراقصة المحترفة. وهو من الآثار التي تحمل تأثيرات هندية واضحة. لذا يعد موقع خور روري من المواقع الأثرية الهامة التي تثبتت علاقات عُمان بالعالم القديم.

وتعد هذه المنطقة الأثرية الهامة التي تم الكشف عنها متميزة في تخطيطها وفننها المعماري، وفنونها ونقوشها الكتابية وتماثيلها وأختامها، ونماذج كثيرة من الصناعات الحرفية القديمة التي عُثر بالموقع على عدد كبير منها والتي يمكننا رؤية نماذج منها وهي معروضة الآن بمتحف اللبان بمحافظة ظفار، ولعل أهم تلك الصناعات الحرفية تتمثل في مجامر البخور المختلفة الأشكال والأحجام، وقد تنوعت بين المجامر الحجرية والمعدنية، وقد حملت الكثير من الرموز الدينية والزخارف المعدنية وكانت منتجات الصناعات المعدنية، وكانت متشعبة أيضا وقد حملت بزخارف ونصوص كتبت بالخط المسند (اللغة العربية الجنوبية) ومن تلك الصناعات المعدنية أواني متنوعة الأشكال يحتفظ متحف اللبان بنماذج فريدة منها، وجميعها نماذج أصلية تحمل عبق التاريخ العُماني وتتم عن تنوع الصناعات الحرفية وجودتها وإتقانها عمليا وفنيا منذ أقدم العصور على الأراضي العمانية.

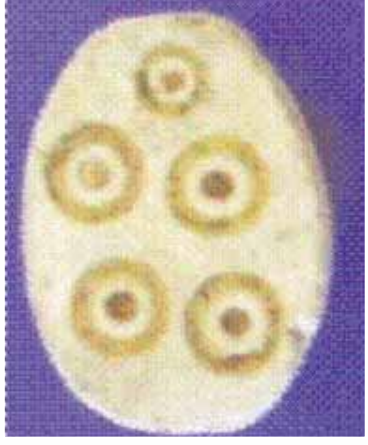
وكما كان جنوب عمان من أنشط المواقع الحضارية في التجارة بسبب توافر اللبان، كان شمال عُمان أيضا مكانا نشطا بسبب تجارة النحاس، فقد اتصلت عُمان ببلاد النهرين، وفي اتصالا مباشرا في بعض الفترات، وفي فترات أخرى لعبت دلمون دور الوسيط للتجارة القائمة بين ماجان وبين بلاد النهرين، فتذكر بعض النصوص المكتشفة في أور - أن تاجرا يدعى (لو إنليل) من عهد الملك أبي - سن آخر ملوك عصر الإحياء السومري (عهد سلالة أور الثالثة) يجلب النحاس والخزنج والعاج وأنواعا من الأحجار

كان لوقوع عُمان على الخليج العربي وبحر عُمان أثر كبير في العلاقات التجارية بين الشرق والغرب. وكان لتلك العلاقات أثر واضح في الحياة الاقتصادية، وفي فنون عمان القديمة وصناعاتها الحرفية التي شكلت مصدرا مهما لتلبية متطلبات المجتمع من الأدوات التي احتاجها الإنسان في حياته اليومية. وتشكل النقوش إلى جانب الآثار مصدرا مهما لدراسة علاقات عمان القديمة، فهي وثائق ذات شأن عظيم كونها الشاهد الباقي من تلك الأزمنة الغابرة، وتلك النصوص نجدنا إما محفورة على صخور الأودية، والجبال، أو على جدران المعابد، أو على الأحجار، أو على الفخار، أو على الرقم الطينية، أو على الألواح المعدنية. ومن أبرز تلك الكتابات النقشية التي تفصح عن علاقات عمان القديمة وحضارتها:

الكتابات المسمارية لملوك بلاد الرافدين، واللغة المصرية القديمة، واللغة اليمنية القديمة، والكتابات الفارسية القديمة، وكلها وثائق حملت إشارات جوهرية عن تاريخ عمان الضوء على العلاقات المتشعبة بين لنهضتها الحضارية القديمة. وقد ساعدت تلك النصوص - إلى جانب الآثار التي عُثر عليها في عمان وباقى مناطق الخليج العربي - في إلقاء الضوء على العلاقات المتشعبة بين عُمان وبقية المناطق الحضارية في شرق شبه الجزيرة العربية من جانب وبين عُمان والحضارات الكبرى في الشرق الأدنى القديم من جانب آخر، تلك العلاقات التي ظهرت آثارا واسعة في عدد من الصناعات القديمة، كصناعة الفخار، وصناعة مجامر البخور، وصناعة الأختام، وصناعة الأواني المعدنية.

وكان من تلك الآثار أن عُثر على أختام تقلد الجعارين المصرية في عدد من المواقع الأثرية بالسلطنة، والختم مصنوع من الحجر الصابوني عُثر عليه في القبر (8 BIG)، ومنها ختم عُثر عليه بموقع بوشرا الأثري، بمسقط، وأبعاده (٥٧٩ ملم)، والختم يشبه أختام الجعران المصرية، ويظهر على وجه الختم أسد مجنح رابض على رجليه الخلفيتين، ويقف على رجليه الأماميتين، وزبله مرفوع. وهناك أختام أخرى تقلد الجعارين المصرية، كالختم الذي عُثر عليه بأحد القبور بموقع ميناء صحار، وهو ختم بهيئة الجعران المصري، مصنوع من الحجر الصابوني، أبعاده (٥ سم، ١ سم 7 ملم)، وهو يشبه الختم السابق الذي عُثر عليه في موقع بوشرا إلا أن هذا الختم أكبر حجما وأقل دقة في تقليد الجعران المصري، وربما كان الأول ختما مصريا خالصا، بينما هذا الختم تمت صناعته محليا كتقليد للأختام المصرية، ويظهر هذا في نوع النقوش التي تظهر على وجه الختم، وهي عبارة عن دوائر منقطة وهي نفسها التي استخدمت لتمثيل عين الجعران. وهذا النوع من الزخارف معروف في الأواني العمانية المنتمة للألف الثالث قبل الميلاد.

وقد تشعبت تلك العلاقات ووصلت تلك التأثيرات إلى المناطق الحضارية المجاورة لعُمان أو قل المناطق التي تاجرت مع عُمان واعتمدت عليها في توفير الكثير من المواد المهمة - (كالنحاس والأحجار، واللبان) - اللازمة لصناعات كثيرة. ففي دلمون عُثر على أختام مشابهة لتلك التي عُثر عليها في عُمان - يحتفظ متحف البحرين ببعضها - اتخذت الشكل المخروطي أو الهرمي، أو على شكل الجعران المصري. وفي دلمون أيضا عُثر على نموذج لمقبض مرآة في هيئة بشرية يذكر ببعض النماذج من الحضارة المصرية القديمة، وربما كان هذا الاتصال بداخل الخليج العربي القديم قد تم عبر العلاقات مع عُمان في الأساس، فهي التي تصدر فم الخليج، وهي صاحبة التاريخ البحري



■ أختام عُمانية ذات تأثير مصري بهيئة الجعران



■ نص سومري يسجل وصول مراكب ماجان إلى أرض سومر